

٠٣٦٨.٠٢.١٥٦٥

حمودة أي مستقبل الصراع العربي الإسرائيلي"، مقالة لسميح"

العربي مسودة مقالة لسميح حمودة بعنوان "أي مستقبل الصراع
الإسرائيلي، والتغيرات الإسرائيلي"، تتناول مستقبل الصراع العربي
الفكرية.

أَيَّ مستقبل للصراع العربي - الإسرائيلي ①

ثمة جملة من المتغيرات الثقافية والفكرية والاقتصادية في الساحة العالمية تشير إلى صحن جديد للصراع العربي - الإسرائيلي ولإمكانات حله بصورة جذرية ونهائية .

أول هذه المتغيرات هو تغير العلاقة التاريخية بين العالم الإسلامي وبين دول الغرب من حالة الصراع المحتوم والتنافس على السيطرة والهيمنة والتمد بالأسلحة العسكرية المباشرة إلى حالة جديدة يمتزج فيها الصراع والرغبة في السيطرة مع التعاون والتنسيق والرغبة في التفاهم والتداعي . وهذا الامتزاج بين عنصرين متناقضين ناهجم في الدرجة الأولى عن زيادة مساحة اللقاء الثقافي والحوار والتعاون الاقتصادي بين شعوب العالم الإسلامي وشعوب الغرب . وقد جاء هذا اللقاء ضمن نفس الزمن التاريخي الذي شهد التوسع الغربي في العالم في مرحلة الاستعمار المباشر بدايةً وفي مرحلة الاستعمار غير المباشر والذي يتجلى حالياً بما اصطلح عليه بالعمولة نهائية .

(5)

وحتى ندرك أبعاد وتجليات هذا التغير يجب أن نعود إلى مناقشة مسلّمة نظرية سود في الأوساط الفكرية العربية والإسلامية حكمت نظريتنا للعالم وأحداثه لفترة طويلة ، وهي المسلّمة النظرية التي ترى في الغرب كياناً جغرافياً وثقافياً واحداً ومجاناً قائماً بصورة تكوينية وأساسية على ^{علاء} الإسلام والكيان للمسلمين وصحبتهم . ولقد كان من صلتهم هذه المسلّمة أن صيحات الحرب والنزال والقتال والصراع مع الغرب قد طغت على أية صيحة أخرى قد ترون الأصور بمختلف مختلف .

والداعي للعودة إلى مناقشة هذه المسلّمة ثلاثة ظواهر : الظاهرة الأولى هي أن العقل الغربي قد بدأ يتوَعَّب ظاهرة الإسلام العالمي ، بمعنى الإسلام المتمدن في كل أنحاء العالم ، بماضيه القرب نفسه ، والذي يعيش أبنائه والمتنسبون إليه في جميعات متقدرة ، يتكيفون في حياتهم معها ويكفون في الوقت نفسه يحافظون على هويتهم الإسلامية الخاصة . فهم مثل سائر البشر يعون

(٤)

إلى ترقية أحوالهم المادية والثقافية، وينظرون
إلى غيرهم من الناس على أنهم بشرٌ مثلهم يعايشون
معهم ويرتبطون بهم بشئ أنواع الأواصر الإنسانية .
إنَّ تغيُّرَ النظرة للمسلمين وبلاسلامهم بالقرب ، وإن لم تكن
بالمسوى الذي يريده الملحدون ، ذات أهمية كبيرة .
صنفي تشير إلى اتجاه صاعد ، إذ أن مستوى هذا
الفهم ، ورغم كل محاولات المعادين للإسلام من مؤسسات
استعمارية عرقية وصنطلات دينية متطرفة متغلقة
التفكير ومؤسسات صهيونية ذات مآرب سياسية ،
يتزايد عبر الأيام ، وعبر ازدياد صاحة اللقاء والحوار
بين المسلمين وغيرهم ، وهذا مسعود في النهاية إلى تخلي الغرب عنه
سياسة معاداة الإسلام ، تحملاً يسودى إلى تغير طبيعته توزيع القوة داخل الفريق نفسه ،
وليفي أن تشير إلى أن قوة المسلمين السياسية
في دول أوروبية وفي الولايات المتحدة تتصاعد سنة بعد
سنة ، وجميع المؤشرات تشير إلى عظيم ضرر نخام
المسلمين في ضرر أنفسهم كقوة سياسية وثقافية
معتبرة في الغرب . الغربي
الفاخرة الثانية هي أن النابيد / الأعمى لإسرائيل وسياجتها

٤

في فلسطين وفي منطقة الشرق الأوسط في نزول
صنمها. إن زيادة الوعي العالمي بقضايا حقوق الإنسان
وبضرورة النضال ضد الدول التي تمسك التمييز العنصري
والديني وتضطهد مجموعات بشرية معينة حقها لمجرد كون
أعضائها ولدا خارج المجموعة البشرية أو العرق الذي تدعي هذه
الدول الانتساب إليه ، قد وضع إسرائيل في خانة
خارج الإجماع الغربي . فالواضح تماماً الآن أن الذين
يؤيدون إسرائيل لأسباب استعمارية أو دينية أو ثقافية ،
لم يعودوا قادرين على السكوت أمام جرائمها الممكرة
ضد الفلسطينيين وضد العرب ، وأن هؤلاء دائماً محاصرون ،
وهضطرون إما للتبرير وإما للاغتراف الحقائق ومنع
انتشارها حتى لا تزداد أمورهم تعقيداً أمام الجماهير
العربية التي لم تعد تقبل ثقافة التبرير للاستعمار ،
والتبرير لاضطهاد الإنسان ، وسياسة التمييز العنصري .
ويجب أن لا ننسى أن التأييد الذي حظيت به إسرائيل
دما زالت تحظى به حالياً يرجع بدرجة كبيرة إلى
لقائف الجمهور الغربي مع ضمها لاضطهاد النازي .

٥

- فالتأييد لإسرائيل ناجمٌ في الحقيقة عنه وعي زائفٍ ومغالٍ للعقل الغربي بحقيقة وأبعاد الاضطهاد الذي يُعرِّف له اليهود، ومنه غفلةٌ كاذبةٌ عنه حقيقة أن إسرائيل تستخدم هذا العاطف لتطبيق ومحايدة سياسةٍ شبه نازيةٍ ضد شعب آخر هو الشعب الفلسطيني. ولكن العقل الغربي شديدٌ حالياً لآلِي أصوات مؤرخين ومفكرين وعلماء كثيرين، ومن ضمنهم شخصيات يهودية علمية، يرفضون تبريرات إسرائيل لسياسة العنف ضد الفلسطينيين، كما يرفضون استقلال إسرائيل للطريقة التي يُعرِّف لها يهود أدوية لصالح أهدافها الاستعمارية، وللممارستها الابتزاز ضد الدول التي توجَّهت في الجرائم ضد اليهود من أجل الحصول على المال والمزيد من المال تحت غطاء التعويض. وهذا الاتجاه في الفكر الغربي ومن الأوساط الأكاديمية وإن كان لا ينفي حدوث طائفة ضد اليهود، إلا أنه يؤكد حدوثها ضد شعوب وأجناس أخرى، وإلى أن هذه الطائفة لا تبرر تجريد شعب آخر، هو الشعب الفلسطيني، من حقوقه التاريخية من أرضه، لتعويض الشعب اليهودي.

(٦)

- الفاعلة الثالثة هي أن مفهوم القدرية اللغوية والعرفية والنشائية في الدول - القومية يكتب قبولاً متزايداً ، فالواقع أن مفهوم الدولة - القومية التي تضمنت في مدورها الجغرافية شعباً واحداً ، له لغة واحدة وثقافة واحدة ، أخذ بالانحسار . ولعل تجربة الاتحاد الأمريكي ، ونجاح المجتمع الأمريكي في ترسيخ مفهوم القدرية قد ضحك الباب في المجتمعات الأخرى أمام قبول هذه الفكرة . ورغم أن القدرية ومثالة قبول الآخر المختلف في الولايات المتحدة وفي غيرها من الدول لم تأتي دون ثمين باهض (رفعت مجموعات عمرية معينة ، مثل الأفارقة الأمريكيون ، ولم يبلغ درجة المساواة الكاملة التي تصبح فيها مظاهر التمييز وسياساته غائبة عن ساحة الحياة في المجتمع ، إلا أن هذا المفهوم يحظى بقبول الغالبية العظمى من سكان العالم الغربي . وهذا تغير في الوعي له دلالاته وستكون له نتائجها الحاسمة على مستقبل عالمنا / دولية كثيرة من بينها علاقة إسرائيل بالفلستينيين والعرب .

٧

فإسرائيل التي تعتبر نفسها جزءاً من المنظومة الفكرية
والثقافية والحضارية الغربية لن تجد في النهاية منافساً من
الاذعان لمفهوم التعددية هذا، ولنزوة التمثل من خلفتها
العنصرية ومميز اليهود ضلها من سائر المواقفين العرب .
إن جملة الملاحظات التي طرحتها سابقاً حول التغيرات الفكرية
في العالم تصلح قاعدة لشرح السؤال حول الاتجاه الممكن
للصراع العربي - الإسرائيلي، ودور إمكانية إيجاد حلٍ نهائي له .
وبما أن لنا في ضوء هذه الملاحظات وفي ضوء غيرها من
العقائليات ذات العلاقة أن نطرح التسؤلات التالية:
أولاً : إن إسرائيل في تطورها التاريخي ستجد نفسها في
حالة جديدة مع المسلمين والعرب الذين يحيطون بها ، فهي
لن تستطيع الاستمرار في سياسة الهيمنة التي لفرض الهيمنة
والسيطرة على المحيط الجغرافي في الشرق الأوسط بأحمله ، ولن
تستطيع لعب دور الوكيل الاستعماري للدول التي
ترغب في السيطرة على هذه المنطقة وثرواتها . وهذا
ناجماً أولاً من خضوعها في السيطرة على الشعب الفلسطيني

٨

وارتد عن صوته المنادي باسترداد جزء من حقوقه
التاريخية لمن أرضه ، وضلها في فرض صفوحها للأرض
الخاصة كما حاولت تجيده من خلال احتلالها للجنوب
اللباني لأكثر من عقدين من الزمن ، والذي انتهى بهزيمة
النكراء أمام المقاومة الباسلة للشعب اللبناني بقيادة
حزب الله . فتاريخياً يمكن القول أن العقل الصهيوني
لم يعد يمتلك ^{القدرة على} التخطيط والتنفيذ في المنطقة بحرية
كبيرة ودوره عظيم اعتباراً لإرادة شعوبها والمقاومة
التي تقوم بها هذه الشعوب للخطط الإسرائيلية . فالواقع
تماماً من تجربة الاحتلال الإسرائيلي للجنوب اللبناني ، ومنه تجربة
انتفاضة الأقصى الأخيرة أن صوت الشعوب ومقاومتها
للمشروع الصهيوني عامل حاسم في الصراع لن تسطيع
إسرائيل تجاوزته ، وهو عامل حاكم لأنه
يتبلور خارج إطار مؤسسات الدولة العنصرية
العربية التي يمكن لإسرائيل إخضاعها من خلال الحرب أو
التهديد بالحرب ، أو من خلال الضغط الخارجي عليها من

٩

قبل حلفائها الغربيين . ^{التيام} ^{استمرار}
كما أن استمالة إسرائيل في أوروبا السابقة نجحت ثانياً
عند تغير علاقة المسلمين والعرب بالعالم الغربي ، وهذا
التغير سيؤدي خلال السنوات القادمة ، ومع ازدياد
صياحات اللقاء الثقافي والحوار الفكري والمعتكاف
الإنساني بين شعوب العالم ، كما هو الاتجاه الواضح
الآن ، إلى ازدياد المحاور الإسلامي في الغرب ، وازدياد
التوجه نحو علاقة متكافئة بين الإسلام والغرب ، لا استمرار
علاقة الهيمنة والاضطاع التي استفادت إسرائيل منها
إلى درجة كبيرة .

فإسرائيل إذاً تفقد قدرتها على السيطرة في منطقة العالم
العربي حيث زُرعت ، وقدرة على استمارة العون من
العالم الغربي الذي زرعها ورعاها . ^{الاستمرار إلى صلا نهاية في}

ثانياً : إن هذه الحالة الجديدة والتي تواجهها إسرائيل
حالياً ، ستشهد ظواهر أخرى لها مسميات مقلقة للغاية
في السنوات القليلة القادمة ، مستفرض على طاولات
البحث الإسرائيلي واليهودي والغربي موضوع طبيعة

(١٠)

- الدولة الاسرائيلية دوطيفتها : هل ستبقى هذه الدولة دولة "اليهود" فقط ؟ وهل صبررات جمع اليهود من كل انحاء العالم ضياء ما زالت قائمة ؟ وهل ستبقى هذه الدولة ذات طبيعة عربية - عرقية ، مدحجة بالأصلحة القتاكة والمدمرة ؟ ومن سيفتح التفوق العرقي الاسرائيلي على كل دول المنطقة وكيف ؟ وهل من الممكن في ظل سرعة انتقال التقنية الحديثة والمعلومات والعلوم منع العرب والمسلمين من تغيير ميزان التسلح ومن الحصول على أسلحة لاصية لتهديد فريود اسرائيل والقضاء على تفوقها الحربي ؟ لا اشد ان أسئلة كثيرة أفرى ستطرح حول هذا الموضوع ، ولكن الأمر الحيوي الذي ينبغي الانتباه له في هذا الإطار أن صبررات وجود دولة خاصة باليهود وحدهم في فلسطين قد تداعى جزء كبير منها ، فلم يعد اليهود شعباً غير مرغوب به في العالم الغربي ، ولم يعد بالتالي من الضروري التخلص منه بنقله إلى فلسطين . كما أن المبرر العرقي - الاستعماري

١١

- لوجود إسرائيل ، أي كدولة وظيفية تخدم المصالح الغربية الاستعمارية ، آخذٌ في الضعف لأن طبيعة العلاقات الدولية تشهد تغيراً نوعياً من علامات سودها فكرة الحرب لسوية النزاع وللحصول على قدر أفضل من الثروة والقوة ، إلى فكرة التعاون والتنافس في المجال الاقتصادي والتقني . إنَّ قبول فكرة الحرب وحسم النزاعات عسكرياً متضاد في وعي البشر يوماً بعد يوم ، ولعلَّ المئات من الملايين من الناس التي صارت أرمازاً تموت بسبب الحروب هي التي تقود البشرية إلى مرحلة أخرى من العلاقات ، لا تدفع الحياة الإنسانية ضيقاً شديداً .
- بالبلع لم نصل بعد إلى المرحلة التي تتخلل فيها الصيادات السياسية والفكرية في العالم الغربي مع فكرة اللجوء إلى القوة والحرب للحصول على ما نعتقد أنه حيوي لها في منطقة العالم الإسلامي ، وربما يرى الصديرون أن هذه المرحلة بصيرةٌ عن الكدوث حالياً . ولكن من الواضح لمن ينظر للأشور ضمن رؤية تاريخية بعيدة المدى

(١٢)

● أن كلا العالمين الإسلامي والغربي يرى في الاقتصاد والإنتاج واستخدام الثروات الطبيعية مجالاً أفضل للقاء والتعاون والتعاظم ، بدل الارتكان لخيارات الحرب والنزاع المسلح . إن العلاقات الاقتصادية بين دول العالم الإسلامي والعالم الغربي تبين أن أحدهما لا يستطيع الوصف ووجه الآخر ، وأن التعاون والتبادل هو الطريق الوحيد لاستمرار الحياة في هاذان العالمان . على أن السؤال الذي يبقى مطروحاً أمام المسلمين هو في إيجاد السبل الكفيلة لضمان علاقة متكافئة ونزاهة استقلالية بينهم وبين دول الغرب . وهذه العلاقة المتكافئة هي التي مستفهم حقوقهم السياسية والتاريخية ، وستخلق الأرضية الملائمة لحل النزاع مع إسرائيل وإلى الأبد .

خاتمة : إن الحل النهائي والمعقول والذي يمكن تحقيقه

للنزاع العربي - الإسرائيلي يكمن في تغيير ^{طبيعة} الوجود اليهودي

● في فلسطين من وجود عدواني استعماري تلطي وقمعي

إلى وجود يهودي سلمي ، يتحول اليهود بموجبه إلى

(١٢)

مواجهتين عاديتين ضمن المكان الملمين
والمسيحية الذين يعيشون في المنطقة . وهذا اليهود
له امتداد تاريخي ، وتجربته في الواقع التاريخي معروفة .
إذ أن اليهود عاشوا في طاعة بقاع العالم الإسلامي وحتّى
ظلّ الدول الإسلامية المختلفة دونه أن ليكل وجودهم
وحياتهم في فلسطين وغيرها أية مشكلة للمسلمين الذين
يكتلون الغالبية العظمى من المكان .
إن الحل الوحيد الذي يمكن أن يجلب سلاماً دائماً في
منطقة الشرق الأوسط ، وبكلمات بسيطة وقليلة ،
يمكن في حل بنية الدولة الإسرائيلية ، وتخلّي اليهود
عنه الهوية الصهيونية ، وعنه الفلسفة الصهيونية الإمبريالية ،
وهذا التخلي سيجعل منهم ، كما كانوا تاريخياً ، مجموعة
دينية تعيش وسط ثقافة إسلامية - عربية استوعبتهم
في الماضي و تستطيع استيعابهم في المستقبل .
ولاشك أن تغيّر الوعي اليهودي بهذا الاتجاه لن يكون
سهلاً ولم يكن سريعاً ، ولكنّ الصنف الذي يمكنه أن
يمازج العرب والمسلمين على القرب وعلى اليهود أنفسهم
سعود إلى مثل هذا الحل .